الكتابة التاريخية بين النص القرآني والأدلة الأثرية – سورة سبأ انموذجا-

د./ بلقاسم رحماني*

لقد ذكر القرآن الكريم أمما وشعوبا بائدة وذلك ليس من باب التأريخ لها، وإنما من أجل الدفع بالسير في الأرض ومشاهدة ودراسة آثار الأولين، وذلك من باب الاعتبار والتنبيه على الإتعاظ، ومن هنا وجب الربط بين المعلومات التاريخية المستقات من مختلف المصادر الأثرية من جهة وما جاء به القرآن الكريم، وذلك مصداقا لقوله تعالى:" أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة، وآثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"[1].

وقال تعالى أيضا:" أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون"[2].

وحسب المفسرين فإن معنى ذلك ألم يسيروا هؤلاء المشركون في أطراف الأرض ليعرفوا عاقبة المشركين وأثار الأمم السالفة التي كانت قبلهم ماذا حل بهم من العذاب والدمار بسبب كفرهم وتكذيبهم، فقد كانوا أكثر عددا من أهل مكة وأشد منهم قوة ولا تزال آثارهم باقية من بعدهم شاهدة على قوتهم فلم

---

* أستاذ التعليم العالي، قسم التاريخ – جامعة الجزائر

ينفعهم ما كانوا يكسبون من الأموال وما يشيدون من الأبنية والقصور شيئا، ولم يدفع عنهم العذاب.

ولقد أفاض الكثير من المفسرين حول مقاصد السير في الأرض والتعرف على ماضي الأقوام، وموقفهم من الأنبياء الذين أرسلوا إليهم، وذلك لتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتبشيره بأن النصر سيكون حليفه-بإذن الله-قال تعالى: " وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاء في هذا الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين"3 . كما قال تعالى:" لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون"(4

وانطلاقا من الآيات القرآنية الكريمة أنه علينا أن نعتبر من تلك الآثار5 التي خلفتها تلك الأمم القديمة، والقرآن الكريم يعد مصدرا ربانيا لم يتعرض لأقلام البشر مصداقا لقوله تعالى:"إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون..." 6 وعليه فلدراسة تاريخ الأمم السابقة وآثارها وجب الرجوع إلى هذا المصدر خاصة عندما يقترن النص القرآني بالدليل الأثري.

لقد ذكر القرآن الكريم تاريخ بعض الأمم البائدة، ومما تميزت به من أديان ومعتقدات وتقاليد، وحضارات، ويجمع المؤرخون على أنه لا يمكن فهم التاريخ الحضاري إذا لم يتم البحث والتنقيب في التاريخ الحضاري العربي القديم، -قبل الإسلام-وهو عمل في الواقع لا يعد ترفا فكريا بقدر ما هو تعميق للفهم للإشارات الواردة في القرآن الكريم، مما يتيح للمسلمين فهما أفضل وأشمل للتاريخ الحضاري الإسلامي، خاصة وأن الدراسات الأثرية رفعت اللثام عن حضارات عريقة سادت شبه الجزيرة العربية؛ بل ذلك يؤكد ما ذهب إليه أحد الباحثين أن علم دراسة النقوش والكتابات القديمة في الجزيرة العربية يقدم لنا مثالا واضحا للإعجاز في القرآن الكريم7.

لقد ذكر القرآن الكريم أقواما عديدة بادت، ومن هذه الأقوام ممالك تركت آثارا تحدثت عن تاريخها مملكة سبأ جاء ذكرها في سورة "سبأ" وسورة "النمل"،

وبالتالي فإننا نلاحظ أن ما ذكره القرآن الكريم ينطبق مع الكشوفات الأثرية التي تمت في منطقة مأرب وصرواح، إضافة إلى الكم الهائل من تلك النقوش التي استنطقت وأبانت عن حقائق تاريخية مذهلة، دعمت ما جاء به القرآن الكريم، وكذا وصف الهمداني في كتابه الإكليل لمآثر اليمن السعيد، وأهميته الحضارية.

لقد مكنت النقوش الباحثين من تحديد العديد من الجوانب الحضارية اليمنية القديمة سواء كانت سياسية أو دينية أو عمرانية أو اقتصادية، حيث تم التعرف على ممالك المنطقة، وفتراتها التاريخية، ومميزات كل منها سواء كانت مملكة معين أو سبأ أو قتبان أو حضرموت، أو حمير، حيث دلت النقوش على أن حاكم هذه الممالك يعرف بـــ (المكرب) بيده السلطة السياسية والدينية، ولقد اهتم الباحثون بالمملكة السبئية نظرا لشهرتها بسبب دورها السياسي والحضاري في جنوب شبه الجزيرة العربية، ومن جهة أخرى بسبب ورود ذكرها في المصادر الدينية كالتوراة والقرآن الكريم8

ويذكر المؤرخون أن حكام سبأ عددهم بلغ أكثر من اثني عشرة مكربا وأن آخرهم كان يعرف باسم (كرب ايل وتر) عاصر ملكي أشور وهما سرجو الثاني (705-702 ق.م) وسنحريب (705-681 ق.م) 9 .

وتذكر الكتابات السبئية أن رقعتها شملت جنوب شبه الجزيرة العربية ووصلت بنفوذها التجاري والسياسي إلى إنشاء العديد من المستوطنات التجارية في شمال شبه الجزيرة العربية والشرق الإفريقي، بل وحتى مصر10 .

حضارة سبأ:

لقد أكدت النقوش والآثار الباقية وكتابات الكلاسيكيين على أن السبئين كانوا على قدر كبير من التفوق الحضاري في كل شبه الجزيرة العربية على حساب البداوة حيث امتلكوا أسباب القوة والنفوذ والتفوق، وذلك مصداقا لقوله تعالى في سورة النمل على لسان الهدهد:" إني وجدت إمرأة تملكهم

وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم"[11]. وقوله تعالى على لسان الملأ من قوم مملكة سبأ:" قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد"[12].

وذلك دليل على قوة مملكة-سبأ-وازدهارها الإقتصادي، ذلك أن السبئيين اشتهروا بالنشاط الكبير، حيث أن قوافلهم جالت شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية، ودلت الآثار التي عثر عليها في شمال شبه الجزيرة أنه كانت لهم مستوطنات تجارية كبيرة تابعة لهم في الجنوب منذ زمن الدولة المعينية، كما وصلت تجارتهم إلى بلاد الشام، هذا النشاط الكثيف كانت من نتائجه ذلك الرخاء الذي شهدته اليمن أيام السبئيين، من مظاهره كثرة وتطور العمران، حيث شيد الملوك الكثير من القصور الضخمة والمعابد ولا زالت الكثير من الإنجازات المعمارية قائمة دلت على حضارة عريقة وعلى تقدم فنون الهندسة والعمارة، ومن أبرز الطرق التجارية التي كانت مصدر الثراء السبئيين هو ذلك الطريق الذي كان يمر بصنعاء ومأرب ثم بمكة ويثرب ثم بمدائن صالح حتى يصل إلى بصرى جنوب سوريا، ومنها يأخذ مساره شمالا حتى غزة، والملاحظ أن السبئيين أسسوا مراكز تجارية هامة على طول طريق القوافل المذكور، وبذلك أمّنت قوافلها من نهب البدو، وإلى هذه القرى المكتشفة حديثا على طريق القوافل المذكور أشار القرآن الكريم في سورة سبأ:" وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين"[13].

ويذكر المفسرون لهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى يذكر السبئيين وما كانوا فيه من نعمة وبلاد غنية، والأماكن الآمنة والقرى المتواصلة، والمتقاربة بعضها ببعض، حيث أن المسافر لا يحتاج إلى حمل زاد أو ماء، ذلك أنه حيث نزل يستريح ويقيل في قرية، ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاج إليه في سيره، ويذكر مجاهد وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدي وغيرهم أن القرى المقصودة هي قرى الشام، كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام بقوافلهم التجارية في قرى ظاهرة متواصلة واضحة يعرفها المسافرون[14].

وبالتالي فلقد ارتبط تاريخ سبأ في أيام ازدهارها بسيطرة ملوكها على الطريق التجاري الاستراتيجي إلى أن ظهرت مملكة ظفار وجعلته قريبا من البحر، بعد أن غير خط سيرها هذا الطريق.

-بلقيس وعرش سبأ:

يتفق أغلب المؤرخين المختصين أن تاريخ قيام مملكة سبأ يكون نحو 950 قبل الميلاد إلى سنة 115 ق.م، وبلغت أوج مجدها في القرن التاسع قبل الميلاد.

والملاحظ أنه بالرجوع إلى مصادر وسجلات حكام مصر وفينقيا تمكننا من تحديد على وجه التقريب من ذلك الرجوع إلى قوائم الملوك والفراعنة التي سجلها المؤرخ المصري مانيتون، إضافة إلى سفر الملوك من التوراة، حيث أنه بعد وفاة النبي موسى عليه السلام خلفه في قيادة الشعب الإسرائيلي يوشع بن نون الذي تمكن بحروبه مع ملوك البلاد المجاورة وشعوبها من السيطرة على الأرض الداخلة في فلسطين، وتقسيمها بين بني إسرائيل إلى إثني عشر مقاطعة بعدد الأسباط، وعين على كل مقاطعة كاهنا يسمى "القاضي"فعرف هذا العصر في تاريخ بني إسرائيل بعصر القضاة الذي تحدثت التوراة في السفر المعروف بهذا الاسم، وقد بدأ عصر القضاة من وفاة يوشع بن نون حوالي سنة 1130 قبل الميلاد حتى سنة 1030 قبل الميلاد[15] .

وعندما فسدت أنظمة القضاة اختار صموئيل للشعب الإسرائيلي ملكا لهم هو شاؤل (طالوت في القرآن الكريم)، ويعد أول ملوك بني إسرائيل حيث تمكن من قيادة الشعب وخوض الحروب ومنازلة جوليات (جالوت) قائد الفلسطنيين، وفي هذه الفترة ظهر النبي داود بوصفه أحد جنود شاؤل الشجعان، ونازل جوليات وتمكن من هزمه وقتله، فأعجب به قومه فأصبح حاكم البلاد (1012-972 ق م) خلفا لشاؤل، ولقد ذكر القرآن الكريم هذا الحادث في حوادث تاريخ بني إسرائيل فقال تعالى:" وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء"[16] .

لقد كان داود محاربا شديد البأس، وسع رقعة مملكته وصل بها بحسب عدد من الدراسات إلى عمون (عمان حاليا)، ونهر الفرات، كما أنه تزوج من إمرأة أوربا فأولدها ابنه سليمان الذي خلف أباه على بني إسرائيل وتذكر المصادر أنه في سنة 950 قبل الميلاد وصلت إلى الحكم في مصر أسرة أجنبية هي الأسرة الثانية والعشرين دامت من 945 ق.م إلى سنة 730 ق م.

وحدد المؤرخون المختصون عددهم بخمسة حملوا اسم شوشنق، وما يهمنا شوشنق الأول موسس الأسرة حيث عاصر النبي سليمان ومن بعده ابنه رحبعام، وحسب مانيتون فإن شوشنق حكم 21 سنة 945–924 ق م17

وتذكر بعض المصادر أن العلاقات المصرية الاسرائيلية كانت أكثر وداد حيث ذكر صاحب الحوليات العبراني "وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داوود"18.

كما يذكر أيضا:" وصعد فرعون مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار، وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة وأعطاها مهرا لإبنته إمرأة سليمان"19، من هنا يتضح أن صاحب الحوليات وإن لم يصرح باسم فرعون مصر الذي صاهر النبي سليمان إلا أنه وبإجماع الباحثين هو شوشنق الأول الذي تسميه التوراة (شيشنق) حيث جاء في سفر الملوك "وفي السنة الخامسة للملك رحبعام (ابن النبي سليمان) صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب (ويعني الهيكل الذي بناه سليمان) وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء"20، ويرجح أن يكون هذا الغزو حوالي سنة 931 قبل الميلاد، أي حوالي خمس سنوات كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين، وكان أشهر حكام المدن الفينيقية الملك أحيرام خلف أباه (أبي بعل) 21، على مملكة صور بين سنتي 980–936 قبل الميلاد، وعاصر ابني سليمان بن داود عليهما السلام.

ومن أشهر الأعمال التي اقترنت باسمه هو صداقته للنبي سليمان، حيث أمده بالمعماريين والفنيين، ومواد البناء لإقامة الهيكل في أورشليم، وكذلك إقامة قصر له، وقد استغرق بناءهما نحو عشرين عاما.

والملاحظ أن الملك أحيرام والنبي سليمان ظلا صديقين حميمين وشريكين في التجارة، كما ساعد النبي سليمان على بناء أسطول تجاري كبير في البحر الأحمر، أمده ببحارة فينيقيين مهرة للعمل مع بحارته على السفن–واتسعت صلات أحيرام البحرية وازدادت في البحر الأبيض المتوسط وخاصة جزيرة قبرص22.

من هنا فزمن ملكة سبأ الذي عاصرت فيه النبي سليمان هو النصف الأول من القرن العاشر قبل الميلاد (954– أو 950 سنة قبل الميلاد)، وبلغت سبأ في زمن حكم بلقيس درجة كبيرة من الرقي والإزدهار والثروة والغنى وانتشار الزراعة، وازدهار التجارة، وتقدم فنون العمارة والأخذ بنظام الشورى في الحكم، ويدل على ذلك سورة النمل على لسان ملكة سبأ:" قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون، قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين"23 وبالتالي كان لهذا الازدهار من أبرز الأسباب التي لفتت انتباه النبي سليمان.

–وضع سبأ الديني:

لقد قامت ديانة السبئيين على أساس عبادة الأجرام السماوية، والتي أساسها الثالوث المقدس من الكواكب، فالإله الأب (القمر) أو (الموقاة)، وكانت الإلهة الأمم هي (الشمس) أو (ذات حميم في الصيف وذات بعدان في الشتاء)، أما الإبن فقد كان نجم الزهرة أو (عشتر).

والملاحظ أن أول من دان من العرب بعبادة الأجرام السماوية هم السبئيون وعندما تهدم سد مأرب وتفرقوا في بلاد العرب وحتى إلى الحبشة انتشرت عبادة الشمس والكواكب في أماكن استقرت بها القبائل اليمنية24 .

ولعل السبئيين أخذوا عبادة الشمس عن المصريين القدماء، فالمعروف أن المصريين القدماء عبدوا الشمس وأقاموا لها الهياكل والمعابد ونظموا لها الأناشيد الدينية مثل (أنشودة أخناتون) ومنظومة (مائة نشيد لأمون) 25.

ولقد تميزت معابد الآلهة السبئية بفخامة خاصة في مدينة صرواحْ ومأرب مما يدل على أنه كان يعيش في ملكة سبأ قوم على قدر كبير من الحضارة.

وأكدت أعمال التنقيب في اليمن ما جاء في القرآن الكريم عن عبادة السبئيين للشمس، وقال سبحانه تعالى في سورة النمل على لسان الهدهد: "وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون"26

والملاحظ أن اليمنيين أطلقوا اسم بلقيس على معبد يبعد عن خرائب مدينة مأرب بحوالي أربعة كيلومترات جنوب شرقي المدنية، وهو المعبد المشهور باسم (محرم بلقيس) والذي زاره عدد كبير من الباحثين والأثريين منهم جوزيف توما ارنو 1843، والرحالة الألمان إدوارد جلاسر سنة 1888، وتم مؤخرا الكشف بشكل شبه نهائي عن هذا المعبد من قبل بعثه أثرية ألمانية، ولقد ظل يؤدي وظيفته الدينية طوال ألف عام تقريبا27 .

تثير ملكة سبأ-بلقيس-الكثير من الجدل بين المؤرخين، وذلك نظرا لإنعدام الدليل الأثري على وجود هذه الملكة، فنسجت حولها العديد من الأساطير، وذكرت بشأنها سيلا من الروايات سواء كانت يهودية أو مسيحية أو إسلامية، يمنية أو حبشية، إلا أنه بإجماع الدارسين المختصين فإن الروايات والقصص المكتملة تلك التي جاء في ذكر زيارة هذه الملكة للنبي سليمان من أبرزها تلك التي ظهرت في الملحمة الوطنية الحبشية المعروفة باسم (كبرانجشت) أي (مجد الملوك).

في حين ذهب عدد من مفسري القرآن الكريم إلى نسج روايات حول قصتها مع النبي سليمان وأغلبها مستمدة من الإسرائيليات وخاصة حول الصرح الممرد من القوارير، وهو القصر المشيد المحكم البناء المرتفع في السماء الناعم الأملس، وكذلك حول هديتها للنبي سليمان من الغلمان والجواري وما حلوا به من الأساور من الذهب والفضة والياقوت والأحجار الكريمة، وما حملوه من أنواع النحور والبخور"28.

من ذلك مثلا ابن خلدون يذكر في تاريخه أن ملكة سبأ التي زارت النبي سليمان كان اسمها (بلقمة) أو (بلقيس)، وأنها قد حكمت قومها سبع سنوات قبل زيارتها سليمان، وأربعة وعشرون سنة بعد عودتها من تلك الزيارة، وأنها كانت السادسة في ترتيب الملوك الذين حكموا هذه المملكة.

والملاحظ أن الروايات الحبشية تناول النظام حيث أن هناك جانب سياسي يتمثل في إتخاذها أساسا لشرعية حكم الأسرة المالكة الحبشة، وذلك لإنحدارها-حسبهم-من مملكة سبأ وسليمان، وأن أول ملوك إثيوبيا كان (ماكدة) بطلة الشمس التي اعتبرت سليمان بطل القمر.

أما الهمداني فيذكر في " إكليله " أنه كان في مأرب ثلاثة قصور (سلحين والهجر، القشيب)، أشهرها سلحين، والذي كثر ذكره في كتب الأدب العربي على أنه قصر الملكة بلقيس، وذكره، أعمدته الحاملة للعرش الذي جاء وصفه في القرآن الكريم على لسان الهدهد بأنه (عرش عظيم).

ولقد صدرت أبحاث عديدة وقام عدد كبير منها على أساس نتائج للحفريات الأثرية والتي أكدت على تطور حضارة اليمن، أما القرآن الكريم فلم يصرح باسم ملكة سبأ، لأن القرآن لا يعني كثيرا بذكر الأسماء وإنما قال في الآية 23 من سورة النمل على لسان الهدهد "إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم"(29 والملاحظ أن القرآن الكريم لم يذكر اسم ملكة سبأ التي زارت النبي إلا أن المفسرين كرروا اسم (بلقيس)، ولم يرد كذلك بين الأسماء السبئية المعروفة، ويحتمل البعض أن الاسم منقولا عن العبرية، والتي نقلته عن اليونانية ويعني (جارية) أو (أمة) 30.

إن حكم المرأة في القدم في منطقة الشرق الأدنى ليس بالغريب بل شهدت الكيانات السياسية حكم عدة ملكات منها في مصر حشبتسوت وكليوباترا، وزنوبيا في تدمر، والملكتين اليمنيتين: أسماء وأروى والتي تعرف بـ (بلقيس الثانية)، و [illegible] من الأسرة الصليحية حكمت اليمن في القرنين الرابع والخامس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلادي).

والملاحظ أن اسم النبي سليمان اقترن باسم بلقيس حيث زارته في أورشليم وأعجبت به وبعقيدته وقيل أنها تزوجت منه، وفي ذلك تقول التوراة: "سمعت ملكة سبأ بخبر سليمان...فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم حاملة أطيابا وذهبا كثيرا جدا وحجارة كريمة، وأتت سليمان بكل كلامها، فلما رأت كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه وطعام مائدته، ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب (الهيكل) لم يبق فيها روح وقالت للملك: صحيحا كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وحكمتك"31 .

أما القرآن الكريم فأورد قصة النبي سليمان مع ملكة سبأ في الآيات من 20 إلى 44 من سورة النمل، ومن قوله تعالى:" قيل لها أدخلي الصرح فلما رأته حسبته لجّة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين"32، وهنا قال المفسرون أن سليمان عليه السلام اتخذ لهذه الملكة قصرا عظيما ليريها عظمة سلطته، فلما رأت ما أتاه الله تعالى، وتبصّرت في أمره انقادت لأمر الله، وعرفت أنه نبي الله كريم، وملك عظيم، فأسلمت لله عزوجل، وقالت رب إني ظلمت نفسي" أي بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله وأسلمت لله رب العالمين أي تبعث دين سليمان في عبادته لله وحده33.

—سبأ وسد مأرب والسيل العرم:

لقد ذكر القرآن الكريم (سبأ) مرتين، فالمرة الأولى بمناسبة قصة النبي سليمان مع بلقيس ملكة سبأ، أما المرة الثانية فهي في سورة سبأ حيث يقول تعالى:" لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وعن شمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازي إلا الكفور"34 .

والواقع أن البحوث الأثرية35 أكدت أن الحضارة اليمنية شهدت في الفترة السبئية تقدما في الزراعة وفن العمران، وحسن استخدام مياه السيول في الري.

لقد ظلت أرض سبأ مضرب الأمثال لدى العرب نظرا لخصوبتها، حيث كان أهلها ينعمون بخيرات واديهم الفسيح، وكانت مياه الأمطار تصب عبر وديانها وأشهرها وادي ذنة في فجوة بجبل البلق، حيث شيد السبئيون الأوائل (سد مأرب) وقد كشفت البعثات الأثرية تفاصيل هندسة هذا السد مما يدل على خبرة ومهارة اليمني المعمارية.

والملاحظ أنه باليمن سدود أخرى، فبعضهم ذكر ثلاثون سدا، وبعضهم الآخر قال أن هناك ثمانون سدا، إلا أن أشهرها كان سد مأرب تميّز بإتقانه المعماري وضخامته، حيث وصف بأنه "كان أعظم شأنا، وأكثر نفعا، وأكبرها حجما وأبعدها صيتا وأخلدها ذكرا"36.

ولقد بني السد في عهد الملوك الملقبين بـــ(المكاربة)، وذكر بعض الباحثين أنه بني في المائة والخمسين قبل الميلاد في عهد مكرب سبأ (سمهو علي ينوف) ابن (ذمارعلي) وفي عهد ابنه (يثعين) ويذهب آخرون إلى أنه بني في منتصف القرن السابع قبل الميلاد (650 ق م) 37.

ومن أهم مميزات السّد أن الأراضي التي تحده من وجهة الشرق وهي منبسطة أمامه تحولت إلى جنة فيحاء وارفة الظلال كثيرة الخيرات حتى وصفت بالجنتين كما جاء في القرآن الكريم في سورة سبأ آية 15"لقد كان سبأ في مسكنهم آية جنتان عن اليمين والشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور38" ولقد وصف عدد من الإخباريّن أرض سبأ ومنهم المسعودي، حيث ذكر أنها من أخصب أرض اليمن، وأكثرها جنانا وأفسحها مروجا مع بنيان حسن وشجر مصفوف، وأنهارا متفرقة وكان أهلها في أطيب عيش وأرفهه".

وبعد الهمذاني المتوفي سنة 945م أول المسلمين الذين شاهدوا أنقاض السد، وجاء وصفة كالتالي:" الجنتان عن يمين السد ويساره هما الآن غامرتان، وإنما عفتا لما تدفق السد فيما بين الضياع كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس، ورأيت بناء أحد الصدفين باقيا وهو الذي يخرج منه الماء قائما بحاله على أوثق ما كان، وقد بقي من العرم شيء مما يصل إلى الجنة اليسرى"39 .

ومن الذين زاروا المنطقة من غير العرب الرحالة جوزيف هاليفي، جوزيف توماس أرنو (1843م) في طريقه إلى خرائب مدينة صرواح، وزار سد مأرب حيث نقل كثير من النقوش السبئية التي رآها، وسجل مشاهداته وملاحظاته عن سد مأرب، إضافة إلى أحمد فخري، حيث زار مأرب سنة 1948م، والتقط صورا عن آثار السد، فلقد اعتبرت أول صور مكتملة أخذت عن هذا السد40، من أوصاف الغربيين الكاتبة كلودنايان في كتابها (كنت طبية في اليمن)، تقول واصفة سد مأرب:" لا تزال كتل الأحجار المنحوتة ببراعة منطبقة بإحكام ولا يزال البلاط الذي يغطي منحنيات القنوات كما هو، وكأنه لم تمر فترة طويلة عليه، ولا يسع المرء إلا أن يعجب بدون تحفظ إزاء اكتمال هذا العمل الجدير بنسبته إلى مهندس معاصر"41 .

أما وندل فيليبس في كتاب (كنوز مدينة بلقيس) وصف طريقة بناء السد فقال :" أكثر ما أدهشنا بالفعل كانت الطريقة التي وضعت بها تلك الحجارة الهائلة بعضها فوق بعض بترتيب دقيق، بحيث كان الحجر يناسب الآخر وكأنها قطع الفسيفساء وقد رأينا قسما من جدار السد يرتفع خمسين قدما ما زال شامخا كما كان عندما أنشأه فنانو سبأ قبل 2700 عام"42 .

-انهيار السد:

يلاحظ من خلال زيارتنا وكذا من خلال تقارير البعثات الأثرية أن سد مأرب تعرض مرات عديدة للإنهيار خاصة في القرن السابع قبل الميلاد (حوالي 650 ق م) إلى آخر مرة أصلح فيها سنة 542 للميلاد، في عهد أبرهة الحبشي؛ ففي حوالي 145 قبل الميلاد ظهرت أولى بوادر الانهيار على السد، لكن سرعان ما تم ترميمه وظل قائما إلى سنة 115 ق م، حيث داهمته السيول وأصابه الدمار وحلت بالمنطقة الكارثة؛ وتفرق سكان اليمن في الأرض بعد انهيار السد ويرى البعض إلى أن ذلك كان هو السيل العرم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم.

إلا أن دراسات أخرى ذهبت إلى أن الهمدانيين من ملوك حمير أعادوا بناء السد، وأدخلوا عليه بعض التحسينات مما جعله قائما لمدة خمسة قرون أخرى، وفي منتصف القرن السادس الميلادي سنة 542م أصلح السد للمرة الأخيرة في عهد أبرهة الحبشي كما ذكرنا، وبعد ذلك بسنوات قليلة تصدع السد بفعل السيول الجارفة فأغرق الأراضي المحيطة به، تفرق الناس عنه، ولم يعد ذلك السد قائما ويذهب أغلب المؤرخين إلى أن إنهيار السد يعد نكبة لحقت بالمنطقة كلها لم تفق منها مأرب أو تتغلب عليها إلى اليوم، وعليه فيذهب العديد من الباحثين أن هذا الحدث ورد ذكره في القرآن الكريم43 .

وبعد ذلك بدأت الهجرات اليمنية الكبرى، حيث هاجر الأوس الخزرج إلى يثرب وسكنت غسان أرض الشام، وأسست مملكة الغساسنة في حين هاجر قوم إلى العراق وسكنوا الحيرة حيث أسسوا مملكة الحيرة أو المناذرة، وهاجر الأزد إلى عمان، وخزاعة إلى تهامة، وذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عن سبأ" إنه كان رجلا من العرب وله عشرة أولاد تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة"، وأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وعاملة وغسان 44 "، وبذلك قيل في السبئين المثل المشهور "تفرقوا أيدي سبأ أو أيادي سبأ".

ولقد سجل القرآن الكريم هذا الحدث التاريخي الهام وساقه لكفار قريش للعبرة والموعظة؛ حيث قال تعالى:" لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم وأشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازي إلا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيرو فيها ليالي وأياما

آمنين فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور"45.

ويذكر المفسرون أن لفظ العرم الذي جاء ذكره في الآية الكريمة أن معناه السد، وقال آخر إنه اسم الفأر الذي خرق السد، وقال آخرون هو السيل الذي لا يطاق46 .

ومن أشهر الشعراء الذين كتبوا عن هذا السد الأعمش ومما قال:

ففي ذاك للمؤنسي أسوة ومأرب عفا عليها العرم
رخـام بنـاه له حميـر إذا جاء مواره لم يـرم
فـأروى الزروع وأعنابهـا علـى سعة ماؤهم إذ قسم
فعاشوا بذلك فـي غبطة فجارفهم جارف منهزم
فطـار القيول وقيالهـا بيهماء فيها سـراب يطم
فصاروا أيادي ما يقدرون منه على شرب طفل فطم

الهوامش

1-سورة الروم: آية.9

2- سورة غافر: آية .82

3-سورة هود: آية .120

4-سورة يوسف: آية.111

5-يذكر المفسرون أن كلمة"أثر" وردت في القرآن الكريم مرتين؛ وكلمة "آثار" وردت إحدى عشرة مرة، وكلمة"أثارة" مرة واحدة، كلها تعني بقايا الشيء التي تدل عليه أو ما خلفه السابقون من مظاهر عمرانية قديمة، كما تعني الدلائل والآيات والتواريخ والأخبار،

6- انظر: "لطفي جمعة سبأ بين التاريخ والنص القرآني، ص103.

7-انظر: لطفي جمعة، المرجع السابق، ص79، 80؛ وكذا: عبد الرحمن محمد بلح الغامدي، "إمكانية الآثار في التعرف على عقائد الأمم السابقة للعبرة وترسيخ عقيدة المسلم" مجلة الفيصل، العدد156، السنة13، 1410هـ، 1996م، ص67-70.

8-أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، مصر والعراق، سوريا واليمن وإيران، القاهرة، ط2، 1978، ص.126

9-نفس المرجع، ص162،

10 سورة النمل: الآية22.

11-سورة النمل: الآية33.

12-سورة سبأ: الآية18.

13-محمد عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم.ص147

وكذا: نوفل اسماعيل وسوسة سليمان، في أصول العقائد والأديان، 1976، ص123- .128

14-. ألن جاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم، مصر، 1987، ص360

15-. سورة البقرة: الآية 249

16-التوراة، سفر الملوك الأول، 3: .1

17-سفر الملوك الأول: 9: .16

18-سفر الملوك الأول: 14: 25- .26

19-جاردنر، المرجع السابق، ص108- .109

20-سورة النمل، الآية 28 و.29

21-نعام الجارم، أديان العرب في الجاهلية، ط1، مصر، 1923، ص186- .190

22-سورة النمل: الآية .33

23-للمزيد انظر: فرنسوا دوماس، آلهة مصر، ترجمة زكي سوس، مصر، .1986

24-محمد بن محمد أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، القاهرة، 1984، ص348- 353.

25-سورة النمل: الآية .24

26-أمين فارس الإكليل للهمداني، برنستون، 1940، ص24، هامش12.

27-التوراة (زيادة بلقيس، لبنان).

28-سورة النمل: الآيات من 20 إلى .44

29-ابن كثير، المصدر السابق، ص206.
30-. البحوث الأثرية
31-. سورة سبأ، الآيات 45-46
32-القاضي إسماعيل بن علي الأكوع"سدود اليمن"، مجلة المنهل، عدد454، السنة 53، 1948، ص197.
33-سورة سبأ الآية 14-.17
34-المسعودي، مروج الذهب، ج2، ط3، القاهرة، ج2، ص180-181
35-الهمداني الإكليل، برنستون 1940، ج8، ص43.
36-أحمد فخري، بين آثار العالم العربي، مصر، 1958، ص224.
37-حسن محمد الشماع (سد مأرب من عجائب العالم القديم)، المرجع السابق، ص95-.96
38-نفس المرجع، ص96.
39-نفس المرجع، ص96، وكذا: المسعودي، المرجع السابق، ج2، ص180، وكذا: أحمد حسن، شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ط2، 1954، ص.127
40-رابح لطفي جمعة، المرجع السابق، ص.101
41-سورة سبأ، الآيات 15-.19
42- سورة سبأ، الآيات 14-19.
43-رابح لطفي، جمعة المرجع السابق، ص102.

الملك سيفاقس ولقاء سيغا الدولي 206ق.م - صفحة من الدبلوماسية النوميدية -

أ/ بن عبد المؤمن محمد*

تقديم

ليس لدينا من المصادر التاريخية الكافية التي تثبت بصفة قطعية وجود كيان سياسي مغربي مكتمل الشروط، باستثناء أسطورة عليسة ديدون 1 التي تشير إلى وجود نوع من التنظيم السياسي المغربي في منطقة تونس الحالية .حتى أن المؤرخين اعتقدوا بعدم وجود نظام سياسي وطني ببلاد المغرب القديم قبل القرن الثالث ق.م، كما لا يرجح أن تكون هناك ممالك سابقة للمملكتين النوميديتين مملكة الماسيل ومملكة الماسيسيل نسبة إلى القبائل التي أسستها 2. والملك سيفاقس Syphaxمن بين الملوك الذين برزوا أثناء الصراع الروماني القرطاجي.

لا نحتكم إلى معلومات تفصيلية عن شخصية سيفاقس إلاّ ما بدا في المسكوكات التي ضربت باسمه، غير أنه ظهر في صورتين مختلفتين، الأولى ظهر غير متوج، وشعر قصير ولحية حادة عند مستوى الذقن، بينما في الأخرى متوج وشعر مكور ولحية دائرية الشكل3.

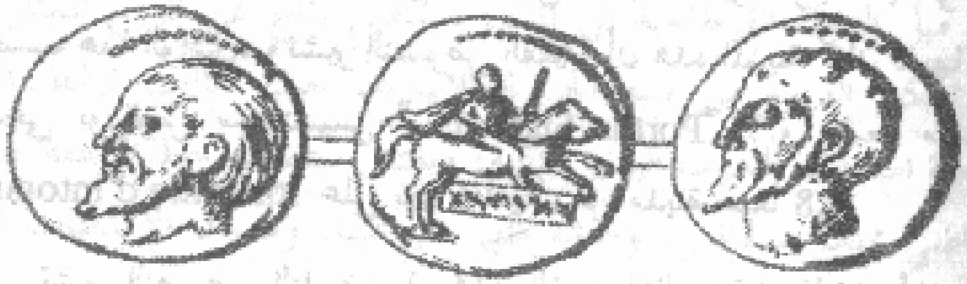

---

[*] أستاذ مساعد في التاريخ القديم، قسم التاريخ، جامعة وهران .